المتأثرون بالفكر الاستشراقي محمد أركون أنموذجا

قبل استعراض ما كتبه محمد أركون عن القرآن الكريم ـ بوصفه موضع بحثنا ـ نشير إلى هذا الاتجاه المتأثر بالفكر الاستشراقي بضرب أمثلة لأبرز أولئك المتأثرين، مع ذكر لأشهر كتبهم في هذا المجال ثم ننتقل إلى الحديث عن محمد أركون وموقفه من القرآن الكريم.

- نجد هذا الاتجاه في كتابات العديد من المفكرين العرب المتأثرين بالاستشراق أمثال: الطيب تيزيني في كتابه: ((النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة)).
- ومحمدعابد الجابري في كتابه: ((التراث والحداثة)).
- ومترجم كتب محمد أركون: هاشم صالح في: ((القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني)).
- وفي عدد من مؤلفات علي حرب كـ ((نقد النص))، و((نقد الحقيقة)).
- وفي مجموعة من مؤلفات: نصر حامد أبو زيد، مثل: ((الخطاب والتأويل))، و((مفهوم النص)).
- وأدونيس في كتابه: ((الثابت والمتحول)).
- وتركي علي الربيعو في كتابه: ((الإسلام وملحمة الخلق الأسطورة)).
- ورشيد الخيون في كتابه: ((جدل التنـزيل)).
- وتلميذ محمد أركون: رمضان بن رمضان في كتابه: ((خصائص التعامل مع التراث)).
- ومحمد أحمد خلف الله في كتابه: الفن القصصي في القرآن.
- ومحمد شحرور في كتابه: ((الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة)).
- وعبدالهادي عبدالرحمن في كتابه: ((سلطة النص)).
- وحسن حنفي في كتابيه: دراسات إسلامية، ومفهوم النص.

وبعد هذا العرض الموجز لروَّاد هذا الاتجاه الطاعن في كتاب الله تعالى نبين موقف أركون من القرآن الكريم.

يشوب موقفه من القرآن الكريم الكثير من الغموض والاضطراب، ففي الوقت الذي يشكك في سلامة القرآن واكتمال نزوله في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووصفه بأوصاف الانتقاص، كالأساطير وغيرها من ألفاظ الانتقاص، إلا أنه لا يصرح بما يصرح به العديد من المستشرقين في نفيهم المصدر الإلهي للقرآن الكريم، ومع ذلك يبقى موقفه في الطعن غير المباشر في مصداقية الوحي هو الأخطر؛ لما فيه

من التلبيس والتدليس ، وننقل بعض مواقفه من كتاب الله تعالى من خلال ما صرح به في كتبه، في النقاط التالية:

١) دعوى تاريخية (النص) القرآني:

ينظر أركون إلى القرآن بوصفه نصاً تاريخياً – كما يَدَّعي – وكجزء من التراث الذي يستلزم قراءة نقدية، يخضع للنقد التفكيكي وإخضاعه – كما يزعم – إلى محك النقد التاريخي المقارن وللتحليل الألسني التفكيكي[١]. وهومنهجٌ في قراءة النصوص وتفسيرها، هدَّامٌ خطيرٌ، قائمٌ على التشكيك في الثوابت واليقينيَّات، وعلى زَعزعة الثقة في أيِّ خطابٍ أو نصٍّ؛ سواء أكان هذا النص سماويًّا، أم بشريًّا، وهو قولهم بما سمَّوه "لا نهائيَّة القراءة"؛ أي: إنَّ النص يحتمل عددًا غير نهائي من التفسيرات والتأويلات وحتى يسوّغ دعوته استخدام ما يسميه المنهج التفكيكي في دراسة القرآن الكريم، يقول: ((لننتقل الآن إلى ما يدعوه الناس عموماً بالقرآن، إن هذه الكلمة مشحونة إلى أقصى حد بالعمل اللاهوتي، والممارسة الطقسية الشعائرية الإسلامية منذ مئات السنين، إلى درجة أنه يصعب استخدامها كما هي، فهي تحتاج إلى تفكيك سابق؛ من أجل الكشف عن مستويات من المعنى والدلالة كانت قد طُمست، وكُتبت ونُسيت من قبل التراث التقوي الورع، كما من قبل المنهجية الفيولويجية (اللغوية) النهائية، أو المغرقة في التزامها بحرفيةالنص))[٢].

وينفي قداسة القرآن الكريم زاعماً وجود نوعين من النص القرآني في العهد النبوي وفي العصر الحالي، نافياً القداسة عن القرآن في زمننا الحاضر، إذ يقول: ((ويمكنني أن أقول بأن المقدس الذي نعيش عليه أو معه اليوم لا علاقة له بالمقدس الذي كان للعرب في الكعبة قبل الإسلام، ولا حتى بالمقدس الذي كان سائداً أيام النبي))[٣].

ويريد أركون أن يصل إلى نتيجة يَدَّعيها، وهي صعوبة فهم الآيات القرآنية في الزمن المعاصر؛ لعدم مشاهدتنا لكيفية وهيئة وتاريخية نطق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الآيات، وحتى نستطيع – على حد زعمه – فهم هذه الآيات في هذا العصر فيلزم تجريد القرآن عن مصدره، ودراسته في هذا الزمن على أنه نص أدبي تطبق عليه المناهج المختلفة في دراسة النصوص الأدبية والتاريخية، وهذا هو الفرق بين القرآن والظاهرة القرآنية، إذ يقول: ((أما التمييز بين القرآن الكريم والظاهرة القرآنية فأقصد به الفرق بين تغذية الروح الإسلامية بكلام الله تعالى، ودراسة النصوص القرآنية كما ندرس الظاهرة الفيزيائية أو البيولوجية أو الاجتماعية أو الأدبية))[٤].

٢) دعوى الأسطورة في كتاب الله ومشابهة التوراة والإنجيل:

ويسعى جاهداً إلى إيجاد الصلة بين التوراة والقرآن الكريم مردداً مزاعم أساتذته من المستشرقين، وفي السياق نفسه يربط بين القرآن والتوراة بوصفه الخطاب الأسطوري ـ كما يدَّعي ـ فيقول: ((إن الحكايات

---

(١) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٦م.

(٢) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ص٢٩.

(٣) مجلة مواقف، عدد ٥٩/٦٠، ص٢٠.

(٤) الفكر العربي، ص١٩، نقلاً عن: نعمان عبدالرزاق السامرائي، الفكر العربي والفكر الاستشراقي بين محمد أركون وإدوارد سعيد، ص٥٨.

التوراتية والخطاب القرآني هما نموذجان رائعان من نماذج التعبير الأسطوري))[٥]. وفي السياق نفسه يرى القرآن الكريم (نصاً أسطورياً) [٦].ويساوي بين الخطاب القرآني والتوراة، ويصفه بالخطاب الأسطوري – كما يزعم – فيقول: « إن الحكايات التوراتية والخطاب القرآني هما نموذجان رائعان من نماذج التعبير الميثي (الأسطوري) »[٧]. بل ومن جرأته على كتاب الله تعالى قوله في تقديمه لترجمة ((كازيمرسكي)) الفرنسية لمعاني القرآن الكريم – كما ينقل ذلك عبدالرزاق هرماس –: ((إن القرآن مدعاة للنفور بعرضه غير المنتظم، واستخدامه غير المعتاد للخطاب، وكثرة إيحاءاته الأسطورية))[٨].

٣) نفي المصدر التشريعي للقرآن الكريم:

وينفي كون القرآن الكريم مصدراً للتشريع، فالقرآن في نظره مجرد مجازات أدبية وحكايات أسطورية ليس لها صلة بالواقع كما يدعي، إذ يقول: ((إن القرآن – كما الأناجيل – ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري لا يمكن أن تكون قانوناً واضحاً))[٩]. ويَفْصِل بين القرآن الكريم ـ الذي يصفه بالخطاب الأسطوري الأدبي المجازي ـ وبين الشريعة، فيقول: ((إنه وهم كبير أن يتوقع الناس علاقة ما بين القرآن والشريعة))[١٠].

٤) التشكيك في القصص القرآني:

وامتداداً لمزاعم أركون بالقول بأسطورية القراءة الإسلامية للتاريخ، وهذا ما يتجلى – على حد زعمه – في قصص الأنبياء . ثم يقول: ((إن تأثير هذه القصص على وعي سامعي القرآن مختلف بحسب طريقة التلقي؛ أي أنها إما تتلقى عن طريق الوعي الأسطوري الدوغمائي (الأصولي المنغلق)، أو عن طريق الوعي التاريخي))[١١]. وتجده يُثني على عمل محمد أحمد خلف الله في كتابه: ((الفن القصصي في القرآن الكريم))، وما حمل من انحرافات في فهم القصص القرآني[١٢].

ولم يذهب أركون بعيداً عن الموقف الاستشراقي من القصص القرآني في زعمهم نقلها عن التوراة والإنجيل، ويردد مزاعم من سبقه من المستشرقين، فيقول: ((ننتقل الآن إلى النقطة الثالثة من موضوعنا: وهي التداخلية النصانية بين القرآن والنصوص الأخرى التي سبقته، وهنا نريد أن نقوم بقراءة تاريخية أفقية للخطاب القرآني، وذلك ضمن منظور المدة الطويلة جداً، بحسب تعبير المصطلح الشهير للمؤرخ الفرنسي ((فيرنان بروديل))، وهذه المدة الطويلة جداً سوف تشمل ليس فقط التوراة والإنجيل، وهما المجموعتان النصيتان الكبيرتان اللتان تتمتعان بحضور كثيف في القرآن، أو في الخطاب القرآني، وإنما ينبغي أن تشمل كذلك الذاكرات الجماعية الدينية الثقافية للشرق الأوسط القديم، وبهذا الصدد يمكن القول إن سورة الكهف تشكل مثلاً ساطعاً على ظاهرة التداخلية النصانية الواسعة الموجودة أو الشغالة في الخطاب القرآني، فهناك

---

(٥) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص٢١٠.
(٦) الفكر الإسلامي، قراءة علمية، مرجع سابق، ص٢٠٢.
(٧) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص٢١٠.
(٨) مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الرابعة، العدد ٣٨، ربيع الآخر، ١٤٢٠هـ، أغسطس ١٩٩٩م، ص١١٩، الحاشية.
(٩) تاريخية الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص٢٩٩.
(١٠) تاريخية الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص٢٩٩.
(١١) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، مرجع سابق، ص١٣٠.
(١٢) ينظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، مرجع سابق، ص٢٠٢.

ثلاث قصص هي: أهل الكهف، وأسطورة غلغاميش [يقصد به: الخضر] ورواية الإسكندر الأكبر [ويقصد: به ذي القرنين] وجميعها تحيلنا إلى المخيال الثقافي المشترك والأقدم لمنطقة الشرق الأوسط القديم))[١٣].

ويتمادى في انحرافه بالتشكيك في صحة ما ورد في كتاب الله تعالى من أخبار الأمم السالفة، وقصص الأنبياء، ويدعو إلى قيام دراسة نقدية تمحص ـ على حد زعمه ـ تلك الأخبار، إذ يقول: ((ينبغي القيام بنقد تاريخي لتحديد أنواع الخلط والحذف والإضافة والمغالطات التاريخية التي أحدثتها الروايات القرآنية بالقياس إلى معطيات التاريخ الواقعي المحسوس))[١٤].

٥) الطعن في منهج منظومة التفسير القرآني:

ومعنى ذلك بأن يفسر القرآن وأن يفهم دلالات النصوص كما يشتهي، وهذا ما يؤكد إعجابه بالتفسير الرمزي الذي لا يتقيد بقواعد اللغة، ولا بأصول الفقه، ولا يعنيه ما وضعه الأصوليون من أصول وضوابط في فهم الآيات القرآنية، والتفريق بين العام والخاص، والمطلق والمقيد[١٥].وكثيراً ما يكرر مصطلح الرمزية في فهم النص، وهذا وإن كان مما أنتجته الحداثة الغربية المعاصرة في الشعر والأدب. ويمجد أركون بالتفسيرات الباطنية فيقول: ((نجد بهذا الصدد أن القراءات الرمزية للصوفيين، والقراءات المجازية للغنوصيين الباطنيين هي أكثر خصوبة بالمعلومات والدروس تجسيد أو تحيين العجيب المدهش المحتمل وجوده في القرآن))[١٦]. ثم يدعو إلى ظهور منهج جديد في التفسير يقوم على المنهجية السيميائية (الدلالية)، ثم التاريخية، ثم الأنثربولوجية لفهم الكتابات المقدسة[١٧].وهو ((يهدف أركون عن طريق استخدام المنهجية السيميائية (الدلالية) والألسنية في الصفحات التالية إلى تحرير القارئ المسلم من هيمنة النصوص المقدسة))[١٨].

٦) التشكيك في جمع القرآن الكريم:

وأما موقفه من جمع القرآن الكريم فيذكر الروايات الإسلامية حول كتابة القرآن الكريم في العهد النبوي وجمعه في العهود التالية ، ثم يعقب بعدم تسليمه بهذه الروايات الإسلامية ويثني على الكتابات الاستشراقية الناقدة لصحة جمع القرآن أمثال كتابات: المستشرق الألماني: نولدكه، في كتابه: تاريخ القرآن، وشوالي، وبيرغستراسير في كتابيهما: جمع القرآن، وتاريخ النص القرآني، والمستشرق الألماني ربيجيس بلاشير[١٩].

٧) الطعن فيما ورد من أخبار الغيب في القرآن الكريم:

---

(١٣) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص٢٢٠ – ٢٢١.
(١٤) الفكر الإسلامي، قراءة علمية، مرجع سابق، ص٢٠٣.
(١٥) ينظر: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الصميعي، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ، ١/٢٤٠ – ٣٥٠، وينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٢٨١ – ٢٨٢.
(١٦) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، مرجع سابق، ص١٩٩.
(١٧) ينظر: المرجع نفسه، ص٩٣.
(١٨) المرجع نفسه، ص٩٣ الحاشية.
(١٩) ينظر: المرجع نفسه، ص٨٦.

يقول: ((ليس الوجه الديني للتوبة إلا عبارة عن مجموع الصور أو التصورات التي تشكل مخيالاً كونياً: أقصد الأنهار التي تجري، والمساكن الطيبة الموجودة في جنات، تستحيل في الزمان التجريبي المحسوس الذي نعيشه))[٢٠].

ثم يشرح مترجم كتبه، هاشم صالح، موقف أركون من الغيبيات فيقول: ((يقصد أركون بذلك أن وعينا الحديث الراهن يعجز عن تصديق وجود مثل هذه الجنات بشكل مادي محسوس، هذا في حين أن وعي الناس في زمن النبي كان منغمساً بالخيال، ولا يجد أية صعوبة في تصور ذلك، واعتباره حقيقة واقعة، لقد كان الوعي آنذاك غير قادر على التفريق بين الأسطورة والتاريخ أو بين العوامل المثالية التصورية والعوامل الواقعية المادية))[٢١].

ومن خلال العرض السابق لموقف أركون من القرآن الكريم يتبين لنا موقفه الطاعن في كتاب الله تعالى، والمشكك في مصدره الرباني بأساليب متعددة، وهو لا يخرج عن المسار الاستشراقي العام من القرآن الكريم، وإن كان عدد من المستشرقين يصرحون بنفيهم للمصدر الإلهي للقرآن فإننا نجد أركون يصل إلى النتيجة نفسها بأساليب مختلفة تعريضاً وتصريحاً، وسيتبين لنا الأثر الاستشراقي الجلي في فكر أركون من خلال عرض تصور المستشرقين المشابه لموقف أركون من القرآن الكريم في الفصل القادم، وسنقتصر على أمثلة من مواقف المستشرقين في المواطن التي تابعهم أركون فيها محاولاً تجنب الإسهاب والإطالة في هذا الموضوع، ثم نتبع ذلك بنقد لمنهج أركون.

---

(٢٠) المرجع نفسه، ص٩٩.
(٢١) المرجع نفسه، ص٩٩ الحاشية.